

المؤهلات التي نريدها من خريجي أقسام اللغة العربية، واقترح لتسهيل رفدهم بها

أ.د. عيسى علي العاكوب
عضو مجمع اللغة العربية في دمشق
أستاذ البلاغة والنقد في جامعة حلب

بين يدي الموضوع:

ثمة مبدأ قديمٌ يُستدعى في مقامات الاستعداد لإنجاز الأعمال، يقول: «أولُ الفكرة آخرُ العمل». ويعني هذا في لغة ما نحن فيه أن الارتقاء بأداء خريجي أقسام اللغة العربية في جامعاتنا السورية والعربية، يستلزم تحديد المؤهلات التي تُراد من هؤلاء الخريجين بعد سني التحصيل. فإذا ما حددنا هذه المؤهلات على نحوٍ دقيقٍ أمكننا أن نتحدث عن كيفية تحصيلها.

وفي هذا الشأن سأعتمدُ قدرًا كبيرًا من التركيز والاختصار، تاركًا التفصيل والإسهاب لمقاماتٍ أُخر. ويبدو لي هنا أن هذه المؤهلات تتوزع على وجهين هما:

١- التأهيل التربوي المعتمد على أسس رُوحية وعقدية.

٢- التأهيل المعرفي.

وسأحدث عن هاتين الوجهتين على الولاء، وأضيف إلى ذلك حديثاً عن مُقترح ابن خلدون لتعليم لغة مُصر، ومقترحِي الخاص في شأن رَفْدِ خَرِيجي أقسام اللّغة بِالْمُوهَلَاتِ المطلوبة منهم:

أولاً - التّاهيلُ التّربويُّ المُؤسسُ رُوحياً وعقدياً:

يُظهِرُ تأمُّلُ سلوكِ الأنبياءِ والمُصلِحينِ والسّاعينِ إلى إحداثِ التّنهضاتِ في مجتمعاتهم حِرْصاً على إحداثِ القناعاتِ الرّاسخةِ بأهميّةِ ما يُرادُ تحقيقه. وقد باتَ حقيقةً نَفْسِيَّةً مُقرَّرةً أنّ النَّاسَ يَنقَادُونَ لِلْمَبَادِيِ بِالْمَحَبَّةِ والتّرعيبِ أكثرَ مِنْ انقيادهم لها بالكراهيةِ والتّرهيبِ. وقد يَصِحُّ لِبَعْضِ الوَقْتِ المبدأُ الحَجّاجيُّ الذي يَقولُ: «النّاسُ عبيدُ العِصا». لكنّ هذه العِصا مُهيأةٌ لأن تُشقَّ عِنْدَ أوّلِ فُرْصَةٍ سانحة. وأقولُ هنا إنّ هذا الذي أُشيرُ إليه هو مِنْ قبيلِ الحَرَكَةِ الرّوحيّةِ العامّةِ التي أوْمِنُ تماماً بِفَعَالِيَّتِها وَجَدَواها. وأحسبُ أنّها تُلحظُ بِوُضوحٍ في كُلِّ ماجرياتِ التّهوضِ الفِكرِيِّ والتّغييرِ الاجتماعيِّ. وفي الحالةِ التي نحنُ إزاءها، ولأنّ الجَماءَ العَفيرَ مِنْ خَرِيجي أقسامِ اللّغةِ العربيّةِ في بلادنا يُعدّونَ لِكَي يَكونوا مُدرّسينَ لِلّغةِ العربيّةِ في التّعليمِ الأساسيِّ والثّانويِّ، لا غنىَ لِخَرِيجِ هذه الأقسامِ عن التّخلُّقِ بِمجموعَةٍ مِنَ القابليّاتِ، أُشيرُ هنا إلى أظهِرها:

١- الإدراكُ العميقُ لأهميّةِ الرّسالةِ التي يُؤدّيها مُدرّسُ اللّغةِ العربيّةِ. فهذا المُدرّسُ هو المسؤولُ الأوّلُ عن مَسأَلَةِ «الفَهْمِ والإفهامِ» لَدَى مَنْ يُدرّسُهم مِنْ مواطنيه الصّغار الذين يُعدّونَ لِكَي يَكونوا المحرّكينَ لِقطارِ الحياةِ العقليّةِ والفِكريّةِ والعمليةِ في بلدِهم. وإنّ تَعليمَ مُدرّسي المُقرّراتِ الأخرِ

يتأثر كثيراً بتعليم مُدرّسِ اللّغة العربيّة، بل يمكن القول بإطلاقٍ إنّ جُملة التّشاطِ الذهنيّ والإنتاجيّ عند أبناء بلدٍ من البلدان تتأثر بمستوى تعليم اللّغة في هذا البلد.

وإنّه لا غنى عن تعليم ذلك في أقسام اللّغة العربيّة وتطلّبه وفق منهجٍ مدرّوسٍ مُتقنٍ. وخيرُ أداةٍ لذلك أن يتحلّى الأستاذ الجامعيّ في هذه الأقسام بهذا الإدراك، ويلاحظ سلوكه في هذه الوجهة، ويقوم أداؤه باستمرار. ولا بدّ من أن يُدرّس الدّارسون في هذه الأقسام ذلك، ويُختبر تحصيلهم في هذا المجال، مثلما يقوم إنجاز مُدرّسيهم في ذلك.

٢- إدراك قيمة أن يكون مدرّسُ العربيّة الذي يُعدّ في هذه الأقسام قادراً على التّعليم بأداءٍ عربيّ سليمٍ أنيقٍ مُتقنٍ في الصّفوف الدّراسيّة، وعلى تشجيع طلابه على مُحاكاته في الأداءِ بعربيّة سليمةٍ جذابةٍ مُشرقة. وخيرُ سبيلٍ إلى ذلك أن يكون الأساتذة في أقسام العربيّة مُزاوِلينَ لذلك بمواظبةٍ ومحبّةٍ، وبغيرِ تصنّعٍ وتكلّفٍ، وأن يرى طلابهم ذلك منهم مُقدّماً باعتمادٍ وتحمُّبٍ. فيحاكونهم بذلك مُظهِرينَ من أعماقِ قلوبهم ابتهاجاً وسعادةً بما يقدمونه. فإنّ ما يُقدّم من القلبِ يَدْخُلُ القلبَ بغيرِ استئذانٍ. والأستاذ في قِسمِ اللّغة العربيّة الذي لا يُقدّمُ تعليمه بِمحبّةٍ واندفاعٍ وآمالٍ هو مَيّتٌ في ثيابِ حيٍّ. وخيرٌ لمن كانت هذه حاله أن يختارَ حِرْفَةً أُخرى أقلَّ احتياجاً إلى هذا المؤهل. ولا بدّ من أن يُعزّزَ ذلك بالاختبارِ والقياسِ والملاحظةِ الدّقيقةِ التي تُظهرُ حظَّ الدّارسينَ من التّحقّقِ بِمُستلزماتِ هذه القيمة، وبالمُتابعةِ الحقيقيّةِ لِسُلوكِ الأستاذ الجامعيّ المدرّسِ في قِسمِ اللّغة العربيّة في هذا

المجال . على أن تُشفَع نتائج التَّقويمِ في الحالتَيْنِ بِالثَّوابِ والعِقَابِ المُناسِبَيْنِ .

٣- إدراكُ قيمةِ المُبادَرةِ الفَرديَّةِ ، واستيقانُ أنَّ الفَرَدَ الواحدَ قد يقومُ مقامَ جَماعَةٍ كاملةٍ . ولا غنى عن قياسِ تحصيلِ الخَريجِ في مجالَيْنِ: التَّمكُّنُ مِنَ المَهاراتِ ، والبراعةُ في إيصالِ هذه المَهاراتِ على نحوٍ تغدُو فيه مَلَكاتٍ ، أي صفاتٍ راسخةٌ في النفوسِ . ويضيقُ تعليمُ العربيةِ في أقسامها الجامعيَّةِ في الزَّمانِ الذي نَحيا فيه إهمالَ التَّمييزِ الفَرديِّ بينَ الأساتذة . فالطَّلابُ حَسَّاسونَ جدًّا إزاءَ تَفاوتِ عَطاءِ الأساتذة ، لكنَّ المؤسَّسةَ الجامعيَّةَ (القِسْمُ ، الكليَّةُ ، الجامعة) تُهملُ هذا الأمرَ ، فاستقرَّ الوَضْعُ على أن يتساوى الذين يَعلمونَ والذين لا يَعلمونَ . وقد لاحظَ العربُ آثارَ التَّمييزِ الفَرديِّ في التعليمِ منذ وقتٍ مُبكرٍ ، فيقالُ مَثَلًا إنَّ الطَّرِمَّاحَ بنَ حَكيمٍ كان مُعلِّمَ كُتابٍ ، وكان الصُّبيَّةُ يخرجونَ مِنْ عِنْدِهِ كأنَّهم جالسوا العُلَماءَ . ونلاحظُ اليومَ شيئًا من مَظاهرِ هذا في المدارسِ الخاصَّةِ .

ومرَّةً أُخرى نقولُ إنَّ ذلكَ ينبغي أن يُعلِّمَ في أقسامِ اللِّغةِ العربيَّةِ ، وأن تُختَبَرُ حُظوظُ الدَّارِسِينَ مِنْهُ ، وأن يُلاحظَ سُلوكُ الأُستاذِ الجامعيِّ نَفْسِهِ في فَعاليَّاتِهِ .

٤- يحتاجُ خَريجُ قِسْمِ اللِّغةِ العربيَّةِ المُتقدِّمِ لِلتَّعيينِ في وَظيفَةٍ «مدرِّسٍ» في التَّعليمِ الأساسيّ والثَّانويِّ إلى سِجَلٍ حَيَاةٍ جامعيَّةٍ يتناولُ كُلَّ نِقاطِ القُوَّةِ والضعفِ التي أبداها في سَنواتِ الطَّلَبِ الجامعيِّ . على أن يتولَّى إعدادَ هذا السِّجَلِ خُبراءُ مُتقنونَ مُنذُ الأيامِ الأولى لِالتَّحاقِهِ بِالقِسْمِ حتَّى التَّخرِجِ ، وأن يُحسَبَ حسابُهُ بينَ جُملةِ أُسسِ التَّعيينِ .

ولسْتُ أحاجُّ في أن ما يُرادُ مِنْ خَريجِ قِسْمِ اللِّغةِ العربيَّةِ مِنَ الوجهِةِ

التربويّة كثيرٌ، ودُوّ مظاهرٍ مُتعدّدةٍ، لكنني ألزمتُ نفسي منذُ البدءِ باعتمادِ الاختصارِ والتركيزِ. وأوجزُ ذلكَ بالقولِ إنّنا في حاجةٍ إلى «المُدّرّسينَ الرّساليّينَ»، الذين يُدرّكونَ جيّدًا ما هو مطلوبٌ منهم في عمَلِهِم، ويرونَ أنّ أداءه وتحقيقه على النّحوِ الأمثلِ من نوعِ المُقدّسِ، الذي يُنفّسني في إثباته ويُفنّنُ في إتقانه.

ثانيًا - التّأهيلُ المعرفيُّ:

قدّمنا الكلامَ على التّأهيلِ التّربويِّ لأهمّيّةِ تحديدِ القصدِ في كلّ عمَلٍ يشاءُ الإنسانُ أن يُنجزه، مُنطلقينَ من المبدأ السُّلوكيِّ النّبويِّ الذي يقولُ: «عَرَفْتَ فالزَمْ». وههنا مندوحةُ الكلامِ على التّأهيلِ المعرفيِّ الذي يُرادُ من خريجِ قِسمِ اللّغةِ العربيّةِ.

ونذكرُ هنا بأنّ المُقرّراتِ الدّراسيّةِ في أقسامِ اللّغةِ العربيّةِ تنطوي على معارفٍ في علومِ العربيّةِ: النّحوِ والصّرفِ والبلاغةِ والعروضِ، وعلى مقرّراتٍ في النّصوصِ الشّعريّةِ والنّثريّةِ تُسايرُ التّطوّرَ الزمانيَّ من مرّحلةٍ ما قبلَ الإسلامِ إلى العَصْرِ الحديثِ. ويُمثّلُ هذانِ الاتّجاهانِ عمودينِ قويّينِ يُبنى عليهما بيتُ المادّةِ التّعليميّةِ في أقسامِ اللّغةِ العربيّةِ. ويُضافُ إلى ذلكَ مقرّراتٌ في علومِ القرآنِ وعلومِ الحديثِ وأدبِهِما، وأخرى في النّقْدِ الأدبيِّ قديمه وحديثه، وثالثةٌ في علومِ اللّغةِ واللّسانِ، وفي الأدبِ المُقارنِ والتّاريخِ واللّغاتِ الأجنبيّةِ.

ويُنظرُ إلى ذلكَ كلّهُ على أنّه قابلٌ لأن يُزوّدَ الدّارسَ بمؤهّلاتٍ تُمكنه من أن يغدو مُدرّسًا للعربيّةِ في مرحلتيّ التّعليمِ الأساسيّ والثّانويّ.

أما أن الخريج لديه هذه المؤهلات ، فليس ههنا مجال مناقشته الكاملة .
وليس ههنا أيضاً مجال لمناقشة جملة المعوقات . لكن الذي لدينا مجال
للحديث عنه هنا أمر نخاله قاصماً للظهر في تعليم العربية في بلدنا العربية .
وتبدو لنا المشكلة الأساسية على هذا النحو :

أن البيئات التي ينشأ فيها ناشئنا اليوم ليست هي البيئات التي أنتج فيها
العرب الأقدمون لغتهم . والحياة التي نحياها اليوم بمظاهرها المختلفة ليست
هي الحياة التي أنتجت المادة التعليمية التي تُدرّس في هذا الزمان . وفي هذه
التقطة يواجه تعليمنا العربية عقبة كأداء انتبه إليها المفكرون في القديم
والحديث . فنحن ، من وجهة ، نصر على تعليم ناشئنا لغتنا الأصيلة المتألفة
المشرقة التي تمثل عماد وجودنا بشراً لهم وجودهم التاريخي والحضاري ،
ولا مندوحة لنا البتة للتملص من ذلك لأسباب ليس ما نحن فيه مجالاً
للإتيان عليها . ثم ، من وجهة أخرى ، نواجه ابتعادنا عن هذه اللغة ، الذي
تفرضه معطيات الحياة . والخلاصة أنه لا وزر من تعليم أبنائنا لغة بينهم
وبينها بعد ما بين المشرقين .

ونجدنا في حاجة إلى بيان أن اعتمادنا مادة تعليمية لغوية بعيدة عن
زماننا هو شطر من المشكلة . وثمة شطر آخر يضاعف العنت الذي نحن
إزاءه ، وهو أننا لا نسلك السبيل الصحيحة التي تُنجينا من العثار . ذلك أن
عرض المادة التعليمية ، لأسباب كثيرة جداً ، انتهى إلى صورة من التجريد
المشوه يصعب معها تأمين المؤهلات التي نريدها من الخريج . وجوه ذلك
أننا نبدأ بتعليم الدارس أدب اللغة العربية ، ونحو اللغة العربية ، وصرف اللغة

العربية، وبلاغة اللغة العربية، وهو لا يفهم من النماذج التي تُقدّم مادّة تعليميّة له إلا التزّر اليسير. هذا إن هو علّم منها شيئاً. نعم، يُهمّل تعليم طالبا «متن اللغة»: معاني مفردات، ودلالات تراكيب، وطرائق تعبير، ويُعلّم جماليات ووظائف نحويّة، وبنى صرفيّة، وتقنيات بلاغيّة، مادّتها الأولى مفردات ونسج لغويّة لا يعرف منها شيئاً.

وأعي تماماً أن المسألة غاية في التعقيد والتركيب، لكنني سأستل من جملة النسيج الخيط الأظهر، أو النواة التي أحسب أن معالجة الفساد فيها مدعاة إلى إصلاح جملة النبتة.

صميم العلة أننا نعلم في أقسام اللغة العربية منذ فجر السنّة الأولى الأدب والنحو والصرف والبلاغة والتقدّ بوساطة نُصوص وأمثلة لا يعي المتعلّم شيئاً من معانيها ودلالات تراكيبها. وابتغاء الإيضاح أقول: كيف يُعلّم الدرس الأدبي والنحوي والصرفي والبلاغي لمن أنّها الثانويّة العامّة مباشرة، اعتماداً، مثلاً، على هذا البيت من مُعلّقة عنتره يصف ناقته:

خَطَّارَةٌ، غِبَّ السُّرَى، زَيَّافَةٌ تَطِسُ الْإِكَامَ بِذَاتِ خُفِّ مِئَمِّ
وَمِنْ أَيْنَ لِطَالِبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي السَّنَةِ الْأُولَى أَنْ يَتَحَسَّسَ الْجَمَالَ اللُّغَوِيَّ
وَالْأَدْبِيَّ، وَيُدْرِكَ الْوُضَائِفَ النَّحْوِيَّةَ لِلْكَلِمَاتِ، وَيَتَلَمَّسَ بَعْضَ مَظَاهِرِ الْإِبْدَاعِ
النَّظْمِيِّ، فِي هَذَا الْبَيْتِ وَأَمْثَالِهِ؟

وإنّه في هذه المنطقه بالذات تجتمع مجموعة من العوائق تحول بين الدارس وبين الانطلاق الصحيح. أدواء نُقطة الانطلاق هذه تفتك مُجمعة

بإمكانيات عقلية موجودة بالقوة عند كثير من أبنائنا وبناتنا. وإنني حين أتحدث عن هذه الأدواء أتحدث بلسان المستيقن المُجرب الذي أمضى قريباً من أربعة عقود في تدريس العربية في ستة أقسامٍ للغة العربية في بلدنا وفي ثلاثة من البلدان العربية في آسية وإفريقية.

وإن نقطة الانطلاق التي تُنوشها رماح الخطأ من كل جانب هذه، تظلُّ مسؤولة عن اختلال مُزمنٍ في تعليم العربية في أقسام اللغة العربية يتناسل صرعاها كلما أوغلت الحياة العربية في الابتعاد عن مسرح الحياة الذي درجت فيه هذه اللغة الكريمة.

وقد تنبّه علماء كثيرون إلى سبيل المعالجة منذ وقت مبكرٍ. فهذا علامة العربية المُتقن الشيخ عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١، ٤٧٣هـ) يتحدث تفصيلاً عن مجالَي الإعجاز والتفوق في الكتاب العزيز فيقول «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلِّ مثلٍ، ومساق كلِّ خبرٍ، وصورة كلِّ عظةٍ وتنبيه وإعلام، وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيبٍ...»^(١) ثمَّ يُبين ضرورة وقوف المتعلم عليها، والخبر التام بدقائقها، ويؤكد أن السبيل إلى ذلك هو قبل كلِّ شيءٍ كثرة مُلابسة المُتون العربية الأصيلية وتأمل دلالات مُفرداتها، والطاقة الدلالية التي تنبثق عن انتظام هذه المُفردات في هيئات تركيبية غايات في الانتظام والتعانق والتأزر الدلالي، وكان جُمَلَ النصِّ الواحد في تسابقٍ في مجال إنتاج المعاني الدقيقة المُصيبة لمقاصدها،

١- دلائل الإعجاز، ص ٤١.

الصَّحِيحَةِ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ الْمَائِزِ، الْبَاعِثَةِ لِدَهْشَةِ الْإِدْرَاكِ الْخَبِيرِ. يَقُولُ شَيْخُ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ الْجُرْجَانِيُّ فِي إِضْحَاحِ أَدْوَاتِ إِدْرَاكِ دَارِسِي الْعَرَبِيَّةِ خَاصِّاتِ الْإِعْجَازِ الْبَيَانِيِّ الْقِرَائِيِّ، وَمَظَاهِرِ التَّفَوُّقِ فِي الْإِبْدَاعِ اللَّغَوِيِّ الْعَرَبِيِّ: «صَحَّ أَنْ لَا غِنَى بِالْعَاقِلِ عَنِ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَالْوَقُوفِ عَلَيْهَا، وَالْإِحَاطَةِ بِهَا، وَأَنَّ الْجِهَةَ الَّتِي مِنْهَا يَقِفُ، وَالسَّبَبَ الَّذِي بِهِ يَعْرِفُ، اسْتِقْرَاءُ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَتَتَبُّعُ أَشْعَارِهِمْ وَالنَّظْرُ فِيهَا»^(١).

هَذِهِ إِذَا الْإِنْتَظَارُ الصَّحِيحَةُ فِي تَحْصِيلِ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهِيَ الْخَلِيقَةُ بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْأَخْذِ بِمَبَادِئِهَا طُلَّابُ أَقْسَامِ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَامِعَاتِنَا الْعَرَبِيَّةِ: اسْتِقْرَاءُ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَتَتَبُّعُ أَشْعَارِهِمْ وَالنَّظْرُ فِيهَا. وَفِي مُتَنَاوَلِنَا أَنْ نُسَمِّي الْعِلْمَ الْخَاصَّ بِذَلِكَ «عِلْمَ فَقْهِ الْعَرَبِيَّةِ».

وَيَقِفُ عَالِمُ الْعَرَبِيَّةِ الْكَبِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الزَّمْخَشَرِيُّ إِلَى جَانِبِ عَبْدِ الْقَاهِرِ فِي تَحْدِيدِ طَبِيعَةِ الْإِتْقَانِ عِنْدَ مُتَعَلِّمِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْكِفِيَّةِ الَّتِي بِهَا يُحْصَلُ عَلَيْهِ، فَتَرَاهُ يَقُولُ فِي مَقْدَمَةِ رَائِعَتِهِ كِتَابِ الْكَشَافِ: «أَنْ يَكُونَ آخِذًا مِنْ سَائِرِ الْعُلُومِ بِحِظِّ، جَامِعًا بَيْنَ أَمْرَيْنِ: تَحْقِيقِ وَحِفْظِ، كَثِيرِ الْمُطَالَعَاتِ، طَوِيلِ الْمُرَاجَعَاتِ، قَدْ رَجَعَ زَمَانًا وَرُجِعَ إِلَيْهِ، وَرَدَّ وَرُدَّ عَلَيْهِ... مُتَصَرِّفًا، ذَا دِرَايَةٍ بِأَسَالِبِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ»^(٢).

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ فِي شَأْنِ هَذَيْنِ الْعَالِمَيْنِ أَنَّهُمَا يُقَدِّمَانِ فِي الْقَرْنَيْنِ الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ الْهَجْرِيَّيْنِ أَسَاسًا لِلتَّحْصِيلِ الْجَيِّدِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَإِضَاحًا لِأَدْوَاتِ

١- دلائل الإعجاز، ص ٤٠-٤١.

٢- الكشاف، المقدمة: ن، س.

التَّمَكَّنِ مِنْهَا. وَنَجِدُنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَعزِيزِ هَذَيْنِ الْاِثْنَيْنِ بِثَالِثٍ نَحْسَبُ أَنَّ
فِيهَا أَتَى بِهِ أُسَاسًا مَتِينًا لِتَسْهِيلِ تَحْصِيلِ خَرِيجِي أَقْسَامِ الْعَرَبِيَّةِ فِي زَمَانِنَا
الْمَوْهَّلَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي نُرِيدُهَا مِنْهُمْ. وَذَلِكَ مَا أَتَى بِهِ الْعَلَامَةُ ابْنُ خَلْدُونِ
فِي مَقْدَمَتِهِ، فِي هَذَا الشَّانِ.

- اقترح ابن خلدون في تعليم لغة مضر:

يَقُومُ مُقْتَرِحُ ابْنِ خَلْدُونِ عَلَيَّ حَلِّ لِمُشْكَلَةٍ مُمَآثِلَةٍ تَقْرِيبًا لِمُشْكَلَتِنَا فِي
عُسْرِ تَحْصِيلِ خَرِيجِي أَقْسَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَيَّ الْمَوْهَّلَاتِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُمْ،
لِكَيْ يَكُونُوا مُدْرِّسِينَ أَكْفِيَاءَ لِلْعَرَبِيَّةِ فِي مَرْحَلَةٍ مَا قَبْلَ الْجَامِعَةِ.

وَقَدْ حَدَدَ ابْنُ خَلْدُونِ الْمَشْكَلَةَ عَلَيَّ النَّحْوِ الْآتِي:

«اعْلَمْ أَنَّ مَلَكَةَ اللِّسَانِ الْمُضْرِيَّ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ ذَهَبَتْ وَفَسَدَتْ، وَلُغَةُ أَهْلِ
الْجِبَلِ كُلِّهِمْ مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرَ الَّتِي نَزَلَتْ بِهَا الْقُرْآنُ. وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى
مِنْ امْتِزَاجِ الْعُجْمَةِ بِهَا، كَمَا قَدَّمْنَاهُ»^(١).

وَإِخَالُ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ تَطْبِيقَ الْوَصْفِ الَّذِي قَدَّمَهُ ابْنُ خَلْدُونِ لِمَا عَلَيْهِ لُغَةُ
أَهْلِ عَصْرِهِ وَمِضْرِهِ، عَلَيَّ حَالِ اللُّغَةِ عِنْدَ أَهْلِ عَصْرِنَا وَمِضْرِنَا، بِقَدْرِ كَبِيرٍ مِنْ
الْإِطْلَاقِ. فَالْمَشْكَلَةُ تَكَادُ تَكُونُ وَاحِدَةً. وَالْإِطَارُ الَّذِي يَتَحَدَّثُ فِيهِ الرَّجُلُ هُوَ
عَيْنُ الْإِطَارِ الَّذِي نَتَحَدَّثُ نَحْنُ فِيهِ: إِطَارُ تَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ لِعَرَبٍ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ
مَلَكَةُ اللِّسَانِ الْمُضْرِيَّ وَفَسَدَتْ. وَقَدْ عَقَدَ ابْنُ خَلْدُونِ لِتَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ هَذَا
فَصْلًا أَعْطَاهُ الْعُنْوَانَ: «فَصْلٌ فِي تَعْلِيمِ اللِّسَانِ الْمُضْرِيَّ». وَقَدْ تَحَدَّثَ فِي هَذَا

١- مقدّمة ابن خلدون، ص ١١٤٦.

الشأن عن مرحلتين هما: حفظُ كلامِ العربِ القديمِ الجاريِ على أساليبهم وطرائقهم، ثم التصرفُ بعد ذلك في التعبيرِ عما في ضميره على حسبِ عبارتهم وتأليفِ كلماتهم وأساليبهم في ترتيب ألفاظهم. وفي هذا يقول:

إلا أن اللغاتِ لما كانتِ ملكاتٍ .. كان تعلمها ممكناً شأن سائرِ الملكاتِ .
 ووجهُ التعليمِ لمن يتبغي هذه الملكةَ ويرومُ تحصيلها: ١- أن يأخذ نفسه بحفظِ كلامهم القديمِ الجاريِ على أساليبهم من: القرآنِ والحديثِ، وكلامِ السلفِ، ومُخاطباتِ فحولِ العربِ في أسجاعهم وأشعارهم، وكلماتِ المؤلدينِ أيضاً في سائرِ فنونهم، حتى ينزلَ لكثرةِ حفظه لكلامهم من المنظومِ والمنثورِ منزلةً من نشأ بينهم ولقنَ العبارةَ عن المقاصدِ منهم.

٢- ثم يتصرفُ بعد ذلك في التعبيرِ عما في ضميره على حسبِ عبارتهم، وتأليفِ كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيبِ ألفاظهم، فتحصلُ له هذه الملكةُ بهذا الحفظِ والاستعمالِ، وتزدادُ بكثرتيها رُسوخاً وقوةً^(١).

فأساسُ الذي يُرسي عليه ابنُ خلدونِ بناءَ تعليمِ العربيةِ عنده ثنائيٌّ من عمليين، يؤسسُ أولهما لثانيهما: الحفظُ والاستعمالُ. ثم يُضيفُ صاحبُ المقدمةِ إلى ذلك أمرينِ آخرينِ هما: «سلامةُ الطبعِ، والتفهّمُ الحسنُ لمنازعِ العربِ وأساليبهم في التراكيبِ ومُراعاةِ التطبيقِ بينها وبين مقتضياتِ الأحوالِ. والدُّوقُ يشهدُ بذلك، وهو ينشأ من هذه الملكةِ والطبعِ السليمِ فيها»^(٢).

ويبدو ابنُ خلدونِ مُطمئناً تماماً إلى هذا الأساسِ، ونراه يؤكدُ ذلك ويطلبُ به

١- السابقُ نفسه.

٢- نفسه.

بِإِلْحَاحِ تُبْرِزُهُ عِبَارَاتُهُ، حَيْثُ يَقُولُ: «وَمَنْ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الْمَلَكَاتِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى لُغَةٍ مُضَرَّ، وَهُوَ النَّاقِدُ الْبَصِيرُ فِيهَا. وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَعَلُّمُهَا»^(١).

وهذا الذي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ كَلِمَاتُ الْجُرْجَانِيِّ وَالزَّمْخَشَرِيِّ وَابْنِ خَلْدُونَ مَطْلَبٌ وَاحِدٌ يَسْتَدْعِيهِ تَصَوُّرُ نَفْسِيٍّ فِي فِلْسَفَةِ التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ يَقُولُ: لَا تُعَلِّمُ عُلُومَ اللُّغَةِ إِلَّا بِامْتِلَاكِ مُسْتَوَى كَافٍ مِنَ الْعِلْمِ بِمَاهِيَةِ اللُّغَةِ وَطَبِيعَتِهَا. فَتَحْصِيلُ عُلُومِ آيَةِ لُغَةٍ هُوَ مُسْتَوَى إِدْرَاكِيٍّ عَالٍ، يُؤَسِّسُ عَلَى مُسْتَوَى إِدْرَاكِيٍّ أَبْسَطَ مِنْهُ وَأَكْثَرَ قَبُولًا عِنْدَ النَّفْسِ.

وَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ وَعْيِيٍّ هَذَا جَيِّدًا، وَالتَّسْلِيمِ بِمَطَالِبِهِ وَتَوْفِيقِهَا حَقًّا فِي الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ. وَفِي هَذَا الشَّأْنِ أُقَدِّمُ الْمُقْتَرَحَ الْآتِيَّ فِي رَفْدِ خَرِيْجِي أَقْسَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عِنْدَنَا بِالْمَوْهَلَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا تَعْلِيمُ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَرَحَلَةِ مَا قَبْلَ التَّعْلِيمِ الْجَامِعِيِّ.

مُقْتَرَحُنَا فِي ذَلِكَ:

قَدَّمْنَا قَبْلُ أَنَّ ابْنَ خَلْدُونَ أَلْحَحَ فِي تَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى مَا سَمَّاهُ هُوَ «الْكَيفِيَّةَ» وَ«الْعِلْمَ بِهَذِهِ الْكَيفِيَّةِ». وَيَبْدُو هَذَا التَّفْرِيقُ فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ، فَمَا الْكَيفِيَّةُ هُنَا إِلَّا الْمَاهِيَّةُ الرَّوْحِيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ لِلُّغَةِ الَّتِي تَعْتَمِلُ فِي الصَّدْرِ فَتَتَدَقَّقُ عَلَى اللِّسَانِ، الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا صُحَارُ بْنُ عِيَّاشٍ الْعَبْدِيُّ حِينَ سُئِلَ عَنْ مَاهِيَّةِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ قَوْمِهِ فَقَالَ: «شَيْءٌ تَجِيْشُ بِهِ صُدُورُنَا فَتَقْدِفُهُ عَلَى أَلْسِنَتِنَا». وَإِحْرَازُ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ يَأْتِي مِنْ حِفْظِ كَلَامِ الْعَرَبِ الْجَارِي عَلَى أَسَالِبِهِمْ

١- نفسه، ص ١١٤٦-٤٧.

والاستمرار في هذا الحفظ إلى أن يتنزل الحافظ منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم. ويستدعي ذلك بالقدر نفسه من الضرورة أن يأخذ المتعلم نفسه بممارسة التعبير عما يجيش في صدره ويعتمل في ضميره على حسب ما وعاه من عبارتهم وترتيب كلماتهم وطرائقهم الخاصة في الأداء.

أما علم الكيفية فشيء آخر نُعبر عنه في زماننا بمصطلحات النحو والصرف والبلاغة. وكان ابن خلدون قد سماه: «سلامة الطبع والتفهّم الحسن لمنزاع العرب وأساليبهم في التراكيب والصياغات، والملاحظة الدقيقة لمناسباتها لمقتضيات الأحوال التي تُقال فيها.

وبني مقترحنا في إصلاح تعليم العربية في أقسام اللغة العربية في زماننا على مطالب هذا التصور الذي نحسبه مُحكمًا تمامًا، ومثمرًا عمليًا. ونرى أن نصوغ ذلك في مبادئ عامة قابلة للتحرّك والزيادة والإنقاص على النحو الآتي:

١- العمل الجاد الذي لا يفتر على إحداث توجه تربوي تعليمي قاصد يُدرّكه جيدًا أساتذة الأقسام وطلاب الأقسام، ينقل مركز الاهتمام من الذوقيات والجماليات الخارجية في العربية إلى تعليم العربية نفسها: مفردات وتراكيب ودلالات كلية. فمثلًا في البيت الآتي للأعشى:

غراءُ فزعاءٍ مَصقُولٍ عوارِضُها تَمشي الهويني كما يمشي الوجي الوحلُ

يُركّز على إفهام المعاني الأصلية للمفردات، وبيان العلاقات والتناسبات التي تربط بينها لتأسيس معنى كلي، يُسهّم مع معاني الأبيات الأخر في إجادة

الْوَصْفِ وَإِتْقَانِهِ وَاسْتِيفَاءِ عَنَاصِرِهِ، بَدَلًا مِنَ التَّرْكِيزِ عَلَى الإِثَارَةِ الذُّوقِيَّةِ
وَاللَّفَاتِ الرُّومَانِيَّةِ الْحَالِمَةِ الَّتِي تُبَعْدُ الدَّارِسِينَ عَنِ الْقَصْدِ.

٢- اعتمادُ عامٍ تحضيريٍّ يُخَصَّصُ لِدِرَاسَةِ نُصُوصٍ وَافِيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَدَوَاوِينِ الشُّعْرَاءِ وَخُطَبِ الخُطَبَاءِ. وَيُرَكَّزُ فِي أَثْنَاءِ
ذَلِكَ عَلَى مَهَارَاتِ الْقِرَاءَةِ وَالْفَهْمِ الدَّقِيقِ لِمَعَانِي الْمَفْرَدَاتِ، وَدِلَالَاتِ
التَّرَاكِبِ وَالصِّيغِ. وَيُعْطَى اِهْتِمَامٌ خَاصٌّ لِمَهَارَاتِ اِلِاسْتِظْهَارِ وَالِاسْتِعْمَالِ أَوْ
الإِنشَاءِ المُحَاكِي. وَفِي بَيَانِ أَهْمِيَّةِ ذَلِكَ يَقُولُ الدُّكْتُورُ عَبْدِ اللَّهِ الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللهُ:

«وعلينا ألا نفرغ من تَهْمَةِ التَّعْوِيلِ عَلَى الحِفْظِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُسْتغْنَى عَنِ
الحِفْظِ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى آيَةِ حَالٍ، وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي المَثَلِ: «العِلْمُ فِي الصَّغْرِ
كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ»، وَذَلِكَ لِأَنَّ الذَّاكِرَةَ أَكْثَرَ تَقْبَلًا وَأَوْعَى لَهُ فِي زَمَانِ
الصَّبَا. وَإِنَّمَا يُعَابُ الحِفْظُ بِلَا فَهْمٍ، وَالخُلُوءُ مِنَ مَلَكَاتِ التَّحْلِيلِ وَالتَّقْدِ.
وَلَيْسَ التَّوَفُّرُ عَلَى الحِفْظِ بِقَاتِلِ مَلَكَةِ النَّقْدِ وَالتَّحْلِيلِ، وَإِنَّمَا يَقْتُلُهَا إِهْمَالُهَا
وَقَمْعُهَا وَكَرَاهَةُ التَّصَرُّفِ مِنَ التَّلَامِيذِ، وَحَمْلُهُمْ عَلَى إِجَابَةِ مَا يُسْأَلُونَ عَنْهُ
بِتَكَرُّارٍ مَا قِيلَ لَهُمْ فِي سَاعَةِ الدَّرْسِ، أَوْ أَمْرٍ بِتَقْلِهِ مِنْ كِتَابٍ مُعَيَّنٍ نَقْلًا
لَفْظِيًّا... وَإِنَّا لَنَشَاهِدُ الإِفْرَنْجِ يُحَفِّظُونَ صِغَارَهُمْ رَوَائِعَ أَدَبِهِمْ حِفْظًا عَنِ
ظَهْرِ قَلْبٍ، ثُمَّ يَأْخُذُونَ مِنْ بَعْدِ بَقْرَاءَةِ أَصْنَافِ التَّعْلِيقاتِ، وَيُنَاقِشُونَهُمْ
المُنَاقِشَةَ الَّتِي تُفْتَقُ أَذْهَانَهُمْ، وَتُمْكِنُ كُلًّا مِنْهُمْ بِحَسَبِ قُوَّةِ إِدْرَاكِهِ مِنَ
النَّظَرِ وَإِنشَاءِ الآرَاءِ»^(١).

نَعَمْ، يُقْتَصَرُ فِي هَذَا الْعَامِ التَّحْضِيرِيِّ عَلَى اسْتِظْهَارِ الأَنْمَاطِ التَّعْبِيرِيَّةِ

١- القصيدة المادحة ص ١٤٤ نَقْلًا عَنْ د. عَبَّاسِ مَحْجُوبٍ: مَشْكَالَاتُ تَعْلِيمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، دَارُ
الثَّقَافَةِ فِي قَطْرِ - الدُّوْحَةِ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٢٠.

العالية، والتبصر في معاني مكوّناتها، وتأمّل هيئاتها التركيبية، ثم محاكاتها في إنشاءات إبداعية يلاحظ في تقويمها إدراك رُوح النَمَطِ المُحاكى، والقُدرةُ على المُحاكاة. فاللغة، كما يقول ابنُ خلدون، ملكةٌ تُحصَلُ بالتحصيل والاكْتساب.

٣- بعدَ هذا العامِ التحضيريِّ الأوّل، وبعدَ أن يتبصّر الدارسونَ بِمادّة اللّغة العربيّة وماهيّتها وطرائقِ أدائها المعاني، يُدرّسُ الطّلبةُ علومَ العربيّة المعروفة: النّحو والصّرف والبلاغة والأسلوبُ تطبيقاً على نصوصٍ في مقدورهم فهمُ معانيها وإدراكُ خصائصِ تراكيبها.

٤- يُولى اهتمامٌ خاصٌّ في الأعوامِ اللاحقةِ للعامِ التحضيريِّ لمهاراتِ استظهارِ النّصوصِ والفهمِ الدقيقِ لمعانيها، ولإنشاءِ النّمادجِ المُحاكيةِ للنّمادجِ العاليةِ في كلِّ عَصْر.

٥- يُختارُ للتدريسِ في العامِ التحضيريِّ ذُووُ الخِبرةِ والإيمانِ التّامِّ بالرسالة، ويلاحظُ عملهم بِدقّةٍ ومُواظبةٍ، وتُقوّمُ النّتائجُ وتُقاسُ وفقَ مبادئٍ غايةٍ في الصّحّةِ والإحكام، ويوفّرُ لهذا الغرضِ نظامَ إشرافٍ ومُتابعةٍ جيّد.

٦- بعدَ إقرارِ القصدِ المُحدّد، وتَحديدِ آلياتِ التّنفيذِ الجيّد، يُباشِرُ التّطبيقُ المُحكّمُ للبرامج، ويُعطى وقتٌ كافٍ لمُراقبةِ النّتائج، والإفادةِ من نظامِ التّغذيةِ الرّاجعةِ في كلِّ ما يُتصوّرُ أنّه مُفيدٌ.

٧- يُوجّهُ شَطْرُ من بُحوثِ ترقّياتِ الأساتذةِ في أقسامِ اللّغة العربيّةِ إلى أنشِطةِ الارتقاءِ بتدريسِ اللّغة العربيّةِ نفسِه؛ لأنّ الغالبَ الآنَ على هذه البُحوثِ لا تَرْبطُه بِهذه الأنشِطةِ إلّا صلةٌ واهية.

وأعيد القول إنَّ التَّحْدِيدَ الدَّقِيقَ لِلْمَوْهَلَاتِ الْمَطْلُوبَةِ فِي الْخَرِيجِ هُوَ الَّذِي يُعْطِي الصُّورَةَ التَّهَائِيَّةَ لِمُخَطَّطِ عُنَاصِرِ الْمَشْرُوعِ زِيَادَةً وَنَقْصًا.

- قَصِيرَةٌ مِنْ طَوِيلَةٍ، أَوْ خُلَاصَةٌ الْقَوْلِ :

حَدَّدَ الْبَحْثُ الْمَوْهَلَاتِ الْمُرَادَةَ مِنْ خَرِيجِي أَقْسَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَدِّينَ لِتَعْلِيمِ هَذِهِ اللُّغَةِ فِي التَّعْلِيمِ السَّابِقِ لِتَعْلِيمِ الْجَامِعِيِّ، وَتَبَيَّنَ عَلَيَّ نَحْوِ دَقِيقِ الْخَلَلِ الَّذِي يَحُولُ دُونَ تَحْصِيلِ الْخَرِيجِينَ هَذِهِ الْمَوْهَلَاتِ فِي أَقْسَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَانْتَهَى إِلَى مُخَطَّطِ نَظْرِيٍّ وَعَمَلِيٍّ يَتَدَارَكُ هَذَا الْخَلَلُ، وَيَطْمَحُ إِلَى تَحْقِيقِ الْمَنْشُودِ عَلَيَّ النَّحْوِ الْمُرَادِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَعْتَمِدُ عَلَيَّ مَبْدَأُ ثُنَائِيٍّ مِنْ عُنْصُرَيْنِ هُمَا: حَفْظُ قَدْرٍ مِنْ مَتْنِ الْعَرَبِيَّةِ فِي أَنْمَاطِهَا الْعَالِيَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَجَيْدِ شِعْرِ الْعَرَبِ وَنَثْرِهِمْ. ثُمَّ التَّصَرُّفُ فِي إِنتَاجِ نَمَازِجِ مُحَاكِيَةٍ لِرُوحِهِ الْمُسْتَسْرِّ فِي مَعَانِي كَلِمَاتِهِ، وَتَرْتِيبِ أَلْفَاظِهِ، وَطَرَائِقِهِ فِي إِنتَاجِ الْمَعَانِي، وَصُورِ التَّطَابُقِ بَيْنَ الْمَقَالَاتِ وَالْمَقَامَاتِ فِيهِ. وَيُصَحَّبُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِإِعْدَادِ تَرْبُويٍّ مُنظَّمٍ يَسْعَى بِقُوَّةٍ إِلَى إِجَادِ رُوحٍ جَدِيدٍ فِي تَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ عِنْدَ الْمُدْرَسِ وَالطَّالِبِ فِي قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، رُوحٍ يُؤْمِنُ إِيمَانًا رَاسخًا بِخَطَرِ إِتْقَانِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِحْسَانِ فِي تَعْلِيمِهَا وَالتَّفَانِي لِبُلُوغِ الذَّرْوَةِ فِي ذَلِكَ.

مَصَادِرُ مَادَّةِ الْبَحْثِ:

- ١- ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، بتحقيق علي عبدالواحد وافي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- ٢- الزّمخشرّي، محمود بن عمّر، كتابُ الكشّاف، دار الكتاب العربيّ في بيروت، ب.ب.ت.
- ٣- عبّاس محجوب: مُشكلاتُ تعليم اللّغة العربيّة، دار الثّقافة، الدّوحة-قطر، ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.
- ٤- عبدالقاهر الجُرْجاني، دلائلُ الإعجاز، مطبعة المدني في القاهرة وجُدّة، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٣هـ=١٩٩٢م.